صنع الله إبراهيم

المحاكمة

في هذه المرة، كانت اللجنة مجتمعة عندما وصلت في موعدي، وأدخلني الحارس العجوز على الفور.

وجدت أعضاءها ــ فيما عدا القصير بطبيعة الحال ــ يجلسون خلف الطاولة الطويلة التي وضعت بعرض القاعة، وبنفس الترتيب الذي رأيتهم عليه في المرة السابقة، يتوسطهم العجوز المتهالك، ضعيف السمع والبصر.

ولفت نظري جو الحداد المخيم الذي تجلى في الشارات السوداء المشبوكة في ياقات ستراتهم وأكاليل الزهور المصفوفة على جانبي القاعة، تحيط بكل منها لفافة من القماش الأسود اللامع، وتعلوها بطاقة عريضة باسم مرسليها، في حروف بارزة.

جعل أعضاء اللجنة يخرسون في، وهم يقلبون بين أوراق الملفات الموضوعة أمامهم، بينما كنت أطالع في فضول أسماء المعزين. وتبينت في مقدمتها الرئيس الأميركي كارتر والسيدة الاولى زوجته، ونائبه والتر موندیل، ومستشاره للأمن القومي بريجينسكي. كما قرأت أسماء المستشار السابق كيسنجر، وعدد من الرؤساء السابقين للولايات المتحدة مثل نيكسون و فورد، بالاضافة الى روكفلر وروتشيلد، ورئيس البنك الدولي ماكنمارا، ورئيس الكوكاكولا العالمية، ورؤساء شركات الأسلحة واللبان (العلكة) والأدوية والأجهزة الكهربائية والالكترونية والبترول، وفرنسا والمانيا الغربية وانجلترا وايطاليا والنمسا، ومرسيدس وبيجو وفيات وبدفورد وبوينج، وامبراطور اليابان.

ولم أجد صعوبة في العثور على أسماء رئيس الوزراء الاسرائيلي بيجين، ووزيريه دايان ووايزمان، ورؤساء الحكومات العسكرية في شيلي وتركيا وباكستان واندونيسيا والفيليبين وبوليفيا، ورئيس زائير موبوتو، والملوك والرؤساء العرب، وأفراد أسرة شاه ايران السابق، وماما دوك السيدة الاولى في جزر تاهيتي ورؤساء الصين الشعبية ورومانيا وكل من كوريا الشمالية والجنوبية وقادة الشعب الاسترالي.

وكانت ثمة أسماء كثير من الشخصيات اللامعة في العالم العربي، من رؤساء للأحزاب القائدة، وكبار المسؤولين عن الأمن والاعلام والدفاع والتخطيط والتعمير، وعملاء الشركات الأجنبية، فضلا عن ألمع الدكاترة، وبينهم مواطني المعروف.

وإذ وجهت اهتمامي أخيرا الى أعضاء اللجنة، شعرت أن تغييرا ما لم أتبين كنهه، قد طرأ عليهم منذ آخر مرة رأيتهم فيها. وتضاعفت حيرتي وأنا أنقل البصر بينهم، ملتمسا التفسير لما شعرت به. فلم تكن الجهامة التي تعلو وجوههم بالأمر الجديد علي. وقد عرفت فيهم ــ رغم العوينات السوداء على وجوه أغلبهم ــ نفس الأشخاص الذين التقيت بهم مرتين قبل الآن.

ومع أني فشلت ــ للمرة الثالثة ــ في احصاء عددهم، من جراء عجزي عن التركيز، الا أني كنت موقنا بأنه لم يزد أو ينقص، اللهم الا فيما يتعلق بالقصير، الذي كان مقعده الخالي ــ الى جوار العجوز ــ مجللا بالسواد، بمثل ما كانت صورته المعلقة فوق الجدار، اشارة الى ما انتهى اليه الأمر.

ولم اكتشف السر الا بعد ان تطلعت الى العانس عدة مرات. فقد تبينت أخيرا ما غاب عني في البداية، اذ كانت ترتدي الملابس العسكرية ذات الشارات الحمراء الموشاة بالذهب.

ولعل تأخري في هذا الاكتشاف يرجع الى أني ألفت أن أرى بين أعضاء اللجنة ثلاثة من العسكريين، وقد سجل لا شعوري هذا العدد من اللحظة الأولى، فاكتفيت بذلك، ولم أول اهتماما لأشخاصهم، شعورا مني بأنهم جميعا ــ بسبب ملابسهم ــ متماثلون.

أما الان فقد دققت النظر الى العسكريين الآخرين حتى تأكدت من جنسيهما، ومن شخصيتيهما. وبحثت عن الثالث حتى وجدته بعد مشقة بسبب التغيير الذي أضفته الملابس المدنية على هيأته.

أثارت هذه الظاهرة فضولي، فانطلق عقلي الذي دربته أحداث العام الأخير على استكناه الألغاز والغوامض، يحاول إيجاد تفسير لها.

كان اعتقادي في السابق أن اللجنة مختلطة مدنعسكرية. لكن استبدال الملابس بالصورة التي رأيتها اليوم هز هذا الاعتقاد من أساسه، فلم يكن يعني سوى أحد أمرين :

اما ان اللجنة تتألف كلها من عسكريين يرتدي بعضهم الملابس المدنية أحيانا، أو مدنيين يرتدي بعضهم الملابس العسكرية أحيانا.

وفي كلتي الحالتين لم يكن ثمة مفزى للاستبدال. حقا أن التخلي عن الملابس يمكن أن يعتبر مؤشرا على انكماش الروح العسكرية في اللجنة، أو تقلصها، وهو الامل الذي داعبني لحظة خاطفة بالنظر الى ما اشتهر عن العسكريين من قسوة وايلاغ في الدماء، وقوى منه ارتداء العانس لها، طالما أنها ــ بحكم انوثتها (رغم احباطها) ــ اكثر انسانية. لكني لم البث ان رأيت في الاستبدال ــ لهذا السبب بالذات ــ تأكيدا للطابع العسكري بدلا من أن يكون تخفيفا منه.

انتزعني رئيس اللجنة من تأملاتي اذ نطق بصوت رصين شابته رنة أسى، فقال بلغة اللجنة :

« نستهل عملنا اليوم بالوقوف خمس دقائق حدادا على الفقيد ».

ازاح الأعضاء مقاعدهم الى الخلف ونهضوا واقفين. اما انا فلم اتحرك من مكاني، لانني كنت واقفا، فاللجنة لا تسمح لأحد بالجلوس في حضرتها.

رفعت عيني الى صورة الفقيد المعلقة على الجدار، خلف الرئيس، ولبثتهما على عينيه، مشاركة مني لأعضاء اللجنة في مشاعرهم. وركزت ذهني طوال الدقائق الخمس التي تتابعت ببطء شديد، في محاولة مخلصة لتذكر الطريقة التي كان يحركهما بها، كل واحدة في اتجاه، أثناء حياته الحافلة.

تنحنح الرئيس عدة مرات، كأنه يقوم بشحن البطارية التي سيعمل بها صوته ثم انطلق يقول، موجها حديثه الى زملائه بينما كان يتطلع الى أكاليل الزهور، كأنما يخاطب في الحقيقة مرسليها :

« حضرات الأعضاء الموقرين. هذه احدى المرات النادرة التي تنعقد فيها لجنتكم لتبحث أمرا يخرج عن مألوف عادتها. وفيما يتعلق بالفقيد فانها المرة الثالثة التي تجتمع فيها بسببه. واذا لم تخني الذاكرة فان المرة الاولى كانت في منتصف الخمسينات، عندما قررنا ضمه الى اللجنة. وما زلت أذكره كما كان وقتذاك، ممتلئا شبابا وحيوية. أما المرة الاخرى فكانت في العام قبل الماضي، عندما احتفلنا بفوزه بجائزة النسر الذهبي، تقديرا لجهوده في خدمة أهداف اللجنة ».

« والواقع ان الفقيد لعب دورا هاما في الاعداد لكثير من التحولات الرائعة التي تحدث حولنا، وفي صياغة الشكل الذي تحققت به ».

« وبفضل هذا الدور تتفتح اليوم ــ من جديد ــ الامكانيات التي تراءت في الخمسينات ثم قبرت في الستينات وأوائل السبعينات، لتحقيق أحلام البشرية والقضاء على كافة المخاطر التي تهدد النوع الانساني ».

« ونحن نشير بذلك الى الحلم القديم، وهو حلم الوحدة الارضية، أو الولايات المتحدة الأرضية، حيث يندمج سكان الكوكب جميعا في دولة متجانسة، تحقق لهم الرخاء وتنشد لهم الحياة الأفضل.

« وهذا يبين عمق الخسارة التي أصبنا بها، وأصيبت بها قضية الحضارة والتقدم، وقضايا الاشتراكية والسلام والديموقراطية ».

توقف لحظة ليترك للحاضرين فرصة تمثل الاستنتاج الذي توصل اليه، ثم استأنف حديثه :

« لقد حرصنا في كل أعمالنا على أن نبقى بمنأى عن أي ارتباط مباشر بالأجهزة الرسمية، والسلطات التنفيذية، رغم الشائعات التي طاردتنا، والتي كان لها أساس من الصحة في بعض حالات معدودة، مست المبدأ المذكور، وان كانت في الحقيقة تدعيما له.

« ونحن نواجه الان حالة مماثلة أرغمتنا، بسبب من خطورتها، على ان نتصدى لمعالجتها. فلا يخفى عليكم ما لها من دلالات بالنسبة للمستقبل.

« ومما يضاعف من دقة الأمر، ما تتعرضون له من مشقة وعنت بالنظر الى أنكم تواجهون الان، مباشرة، اليدين المضرجتين بدماء أحد زملائكم ».

سرت همهمة غاضبة بين الأعضاء الذين لم يرفعوا عيونهم عني طول الوقت، وألفيت نفسي مدفوعا الى الكلام، وعلى غير ما توقعت خرج صوتي مهتزا بكلمات غير التي كنت قد أعددتها.

قلت : « أرجو أن يتسع صدركم لي كي أبسط لكم وجهة نظري. واني واثق أنكم من السماحة والكرم بحيث تسمحون لي أن أتحدث باللغة العربية كي أحسن التعبير عن نفسي. وتأكدوا أني أشاركم الألم لخسارتكم، فهي خسارة لنا جميعا ».

خاطبني الأشقر في حدة :

«ستتكلم عندما نأذن لك ».

تناول العجوز رشفة ماء من كوب أمامه ثم استطرد :

لقد وضعت اللجنة نفسها منذ البداية في خدمة الأهداف الثورية، والمباديء الاخلاقية، والقيم الدينية. وساند أعضاؤها كل ما من شأنه دعم المقومات الاساسية، وتعميق الممارسات الحرة.

وطبيعي أننا أثرنا بذلك حفيظة عناصر الشر والهدم التي لم تألُ جهدا في مقاومتنا. وأشير في هذا الصدد الى ما أثير من ضجة مفتعلة حول الاساليب التي نستخدمها في عملنا، والى الاتهامات التي اغدقت علينا، بالسادية حينا، وبالديماغوجية حينا آخر.

وقد حاولت هذه العناصر دائما ان تربط بيننا وبين الانقلابات السياسية والمذابح الطائفية والحروب الصغيرة، الدائرة على قدم وساق في العالم العربي، بل وبعض حالات الانتحار الغامضة، وحوادث متفرقة لأشخاص اختفوا نهائيا دون ان يعثر لهم على أثر، وآخرين سقطوا من أسطح البنايات، أو قتلوا في حوادث عرضية للسيارات.

الا أن الاعتداء على زميلنا يمثل تطورا بالغ الشأن في هذه النشاطات، الأمر الذي يتطلب منكم اهتماما خاصا. فاذا ما بدت مهمتكم يسيرة لأن المجرم ماثل أمامكم ومقر بما ارتكبه من اثم، فان هذا ليس سوى خداع السطح البراق، وواجبكم هو ان تنفذوا الى الاعماق ».

بدت على العجوز علامات الارهاق، وهو يتراجع الى الوراء في مقعده، كأنما يفسح المجال لزملائه. وكانت العانس العسكرية هي أول من تكلم منهم فخاطبتني قائلة :

« يمكنك الان أن تتكلم ».

كان صوتها رقيقا، لكنه لم يخف ما يكمن بين طياته من صرامة ضاعف منها اشارتها الى رد الأشقر علي، بما يتضمن التأييد لحدته.

والواقع أني كنت شديد الانتباه لنظرات العيون، وايماءات الرؤوس، ونبرات الأصوات، وبالاختصار كل بادرة يمكن أن استشف منها ما ينتظرني من مصير.

وليس معنى ذلك أن الشكوك كانت تساورني بشأنه. فقد هيأت نفسي قبل مجيئي لأسوأ الاحتمالات اذ أني لم أنكر شيئا منذ البداية ولم أحاول تبرير فعلتي. ومن ناحية أخرى فان الندم لم يساورني اذ غشيتني قناعة بان ما حدث كان لابد أن يحدث.

هكذا أعددت دفاعي على صورة اتهام موجه الى اللجنة. واخترت له كلمات قوية. فما دامت النتيجة محتومة، فلا بأس من الاحتفاظ بكرامتي، ومواجهة المحتوم في اباء وشمم.

لكنني لم أكد أواجه اللجنة واستمع لكلمات رئيسها حتى تبخرت صلابتي، وخرج صوتي مهتزا ضعيفا، وأنا الذي خطط له أن يدوي في القاعة ثابتا، شامخا اتهاميا.

قلت بصوت يذوب رقة، مستخدما لغة اللجنة :

« اني أشكر لكم هذه الفرصة التي أتحتموها لي كي أتحدث أمامكم. وأحب أن أؤكد مرة أخرى ادراكي لعمق الخسارة التي حاقت بكم. فاللجنة لا تفقد أحد أعضائها كل يوم (وابتسمت بالرغم مني، لكنهم بالطبع لم يشاطروني الابتسام).

« وأصدقكم القول باني عندما جئت اليوم لم أكن أفكر في الدفاع عن نفسي. فانا مقر بما فعلته، وقابل لكافة النتائج المترتبة عليه. ومع ذلك فكل أمل أن يشفع لي تاريخي وسلامة طويتي والظروف التي أحاطت بي.

« واعتقد انكم تعرفون جيدا أني لم يسبق أن اقدمت على عمل من أعمال العنف. فانا مجرد انسان عادي، يؤثر السلامة قدر الامكان، وتلك الاعمال الجسورة التي يتحدث عنها الاخرون ويتباهون بها، ليست بالنسبة لي غير مادة للقصص والروايات.

« وعندما مثلت أمامكم أول مرة، لم يكن لي من غرض سوى أن أنال رضاكم، اذ تبينت انه الطريق الوحيد لتطوير مواهبي والبرهنة عليها، خاصة وان أفضل أصحاب المواهب قد سبقوني للمثول أمامكم.

« واذا كانت التطورات التي جرت بعد ذلك تعود اساسا الى شغفي بالمعرفة، فان ما صدر مني في حق زميلكم ــ أو على الأصح في صدره ــ لم يكن غير رد فعل طبيعي لانسان بسيط في حالة دفاع عن النفس ».

قاطعني الرئيس قائلا :

« لكنك قررت ــ عقب الجريمة مباشرة ــ انه لم يهاجمك أو يتعرض لك بالأذى.»

قلت : « هذا صحيح. لكنه كان يحمل مسدسا. ولهذا فاستخدام العنف ضدي كان واردا منذ البداية. ومن المؤكد اني لو لم ابادر بالقضاء عليه فانه ما كان سيتركني في سلام. على أني لا اريد ان ادافع عن موقفي. وما أبغيه هو ان تضعوا في تقديركم حالتي النفسية والعصبية، وكوني لم أنم على الاطلاق أثناء وجوده معي، فضلا عن الحصار الذي فرضه علي ».

انحنى الأشقر الى الأمام وتطلع إلي بعينين ملونتين قاسيتين ثم قال :

« اذن فانت تريد ان نقبل صورة البريء سليم النية التي تحاول ان تبيعها لنا؟ »

كان يتعمد في حديثه دائما ــ كما لاحظت ــ أن يستخدم التعبيرات المميزة للغة اللجنة، وهي تعبيرات كانت تثير اعجابي.

قلت : « أنا لا أبيع شيئا، رغم أن البيع والشراء هذه الأيام شملا كل شيء، كما أكدت في الدراسة التي قمت بها عن « الدكتور ». أنا أقرر الحقيقة.»

ضحك ساخرا : « لعلك تظننا من السذج. يجب أن تعرف أننا أدركنا من اللحظة الأولى لوقوفك أمامنا أنك تظهر غير ما تبطن. فقد كانت اجاباتك على الاسئلة التي طرحناها عليك دقيقة وموفقة، مما أثار شكوكنا.

« وإذا كان بيننا من ظل مترددا في القطع بأمرك، فانه حسم رأيه عندما اتخذت من الدراسة المطلوبة منك ذريعة لنبش تاريخ الدكتور وجمع المعلومات عنه، واصررت على المضي في هذا العمل رغم التحذيرات المختلفة التي وجهت اليك.»

وجه حديثه الى أعضاء اللجنة واستطرد :

« ان كل الدلائل تؤكد أننا نواجه مؤامرة كبيرة، حيكت خيوطها بمهارة وخبث شديدين منذ بعض الوقت، وليس الاعتداء على حياة الفقيد سوى حلقة من حلقاتها ».

انزعجت كثيرا لكلام العضو الأشقر، فها هي الامور تتخذ اتجاه مفاجئاً لم يخطر لي ببال، ولن يؤدي الا الى مزيد من الاساءة الى موقفي.

سارعت بالقول وأنا اتضاحك مبديا كل ما استطيع من مظاهر البراءة والطيبة والغفلة :

« سيادتك تملك خيالًا نشيطا ولا أظنك تتكلم جادا».

قال بحدة : « لن تجديك المراوغة ».

قلت : « اؤكد لك أني بريء ».

قال مستنكرا : « وتتراجع أيضا عن اعترافاتك ؟»

قلت : « لم أقصد تبرئة نفسي من ... أقصد انه لا توجد ثمة خطة، واذا وجدت فليس لي بها علم ».

قال بلهجة المنتصر : « آه... ها انت تقر بوجود خطة ».

قلت فزعا : « أبدا. لقد اردت فقط أن اؤكد مرة أخرى...»

أشار الى عضو يجلس في طرف الطاولة، فتناول هذا جهازاً للتسجيل من تحت الطاولة ووضعه فوقها.

قال الأشقر مخاطبا أعضاء اللجنة :

« سأريكم الآن أيها السادة كيف أنه أقر ــ بلسانه ــ بوجود شركاء له ».

أدار العضو الجهاز فسمعت صوتا غريبا لم ألبث أن ميزت فيه صوت تدفق المياه وارتطامها بسطح صلب. ثم تكلم رجل معربا عن دهشته من لون المياه الاسود. وعرفت فيه القصير فارتعدت.

سمعت صوتي يقول : « لابد أنك تستخدم جهازا للتقطير ؟ »

ثم صوت القصير مستغربا : « وكيف عرفت ؟ »

وأخيرا صوتي : « لقد عرفت أشياء كثيرة في الآونة الاخيرة ».

أومأ الأشقر لمدير الجهاز فأوقفه وخاطبني ساخرا :

« أليس هذا صوتك ؟ »

قلت : « أجل.. لكن هذا لا يعني ...»

لم يدعني أواصل كلامي وصاح :

« كيف تأتى لك ان تعرف هذه المعلومة التي لا نعرفها نحن عن زميلنا الا اذا كان لك شركاء يمدونك بالمعلومات ؟ »

تدخلت العانس في الحديث قائلة :

« ليس من الضروري ان تكون المؤامرة قائمة منذ البداية. فربما ولدت في وقت لاحق. وهذا ما تدل عليه اشارته الى أنه عرف أشياء كثيرة في الآونة الاخيرة.

ووجهت إلي الحديث مستأنفة : هذا أفضل لك، لانه يعني أنك كنت سليم النية في البداية ثم وقعت تحت تاثير العناصر الهدامة والمنحرفة. فاذا ذكرت لنا أسماءهم، ربما كان لذلك أثر في تخفيف الأمر بالنسبة لك.

ضغطت يدي في يأس وأنا أقول في صوت جاهدت لأجعله ناطقا بالصدق :

« أرجوكم ان تصدقوني.لقد وقع كل شيء بمحض الصدفة ».

سألني أحد الأعضاء : « لم يمدك أحد بالسكين التي استخدمتها ؟ »

أجبت : « أبدا. لقد كانت موجودة، كما ذكرت من قبل، في المطبخ ».

سألني عضو آخر :

« كيف تأتى لك ان تعرف تلك الأشياء التي أشرت اليها ؟ »

أجبت : « من الصحف ».

ضحك العضو وتطلع الى زملائه كأنما لا يصدق ان تكون الصحف مصدرا للمعرفة.

قلت موضحا : « لقد اضطرني بحثي عن الدكتور الى مراجعة أعدادها على مدى ربع قرن. ومكنني هذا من رؤية الوقائع والاحداث في ترابطها والوصول الى استنتاجات قيمة يسرت لي تفسير كثير من الظواهر المعاصرة .

مال أحد العسكريين فجأة الى الأمام وقال :

« هل لك ان تحدثنا عن هذه « الظواهر » كما تسميها؟

قلت في اعياء : « اعتقد ان اجابتي على هذا السؤال، الذي سبق ان وجهه الى الفقيد، موجودة في الأوراق التي أمامكم، بالنظر الى كفاءة الاجهزة التي تملكونها ».

قلب في عدة أوراق أمامه وهو يقول :

« أجل .. أجل .. لدينا هنا بضع أمور.. الامراض النفسية والسيجارة المصرية.. مياه الحنفية .. الادوية الاجنبية والكوكاكولا.. لكنك لم توضح لماذا تعتبر هذه الامور دون غيرها ظواهر جديرة بالالتفات ؟ »

قلت : « لم أقل هذا أبدا. لقد ذكرتها في معرض الاستشهاد بأمثلة. فالظواهر المماثلة لا تعد ولا تحصى ».

قال : « لقد تجنبت الحديث لما تبينته بصددها، كما انك أشرت الى العلاقة بينها دون ان توضح ما تعنيه بذلك ».

فكرت بسرعة حتى وصلت الى قرار، فقلت بلهجة من استبان أخيرا ان الصدق والصراحة التامة هما أسلم وسائل الدفاع :

« سأتحدث بصراحة كي أثبت لكم صدق نيتي وسلامة طويتي. والواقع أني ضحية لطموحي من ناحية وشغفي بالمعرفة من ناحية أخرى. ولولا الخاصية الأخيرة بالذات ما وقفت هذا الموقف الان ».

قاطعني العسكري قائلا :

« الأفضل ان تطرق الموضوع مباشرة ».

قلت : « لقد أردت فقط أن أوضح كيف انسقت الى التفكير في هذه الامور والبحث عن تفسير لها. الا أني سرعان ما تبينت أن تناول إحداها بمعزل عن البقية لن يؤدي بي الى شيء. والنتيجة ذاتها تنتظرني اذا ما تناولتها جميعا، من خلال العلاقات المتبادلة بينها، دون أن يكون لدي المنهاج السليم للبحث.

« وهكذا توصلت الى نقطة البدء، وهي العثور على المنهاج الذي يصلح لتفسير كل ظاهرة على حدة، وكافة الظواهر في علاقاتها بعضها ببعض ».

بدا على وجوههم الاهتمام، وأدركت أنني اثرت فضولهم الى أقصى حد، فتابعت :

« أقبلت أجرب كافة المناهج المعروفة دون أن أصل الى شيء. وذات يوم كنت أفكر في الامر عندما قلت لنفسي : إن مشكلة هذه الظواهر والالغاز أنها لاتتصل بمجال واحد من مجالات الحياة، وانما تمتد الى مجالات متنوعة ومعنى هذا ان « التنوع » هو طابعها الاساسي.

« وهنا تذكرت احدى النتائج الهامة التي توصلت اليها في بحثي عن الدكتور، وهي مساهمته في تطوير اللغة العربية بابتكار اشتقاقات جديدة من كلمات عادية، منها ذلك المصطلح الفذ : «التنويع». ففيه وجدت ضالتي ».

تحدث العضو البدين لاول مرة، وهو الذي كان يرتدي سترة بيضاء في مقابلتي الأولى باللجنة، وقد استبدلها الان باخرى من القطيفة الحمراء.

« هل يمكن ان تعطينا مثالا لما تعنيه ؟ »

أجبت : « هذا ما كنت انوي أن أفعله حالا. وسأتخذ لمثالي موضوعا مألوفا لنا جميعا وهو الكوكاكولا. فهناك الكثير من الظواهر الغامضة التي ترتبط بتطور هذه الزجاجة الشهيرة.

وعلى سبيل المثال، فقد قرأت عن حملة واسعة ثارت في الولايات المتحدة عام 1970 حول سوء معاملة ربع مليون من العمال الموسميين في المزارع التابعة لشركة الكوكاكولا. أقول المزارع لا المصانع. وقد انتقلت هذه الحملة الى التليفزيون ومنه الى قاعات الكونجرس. وقام السناتور والتر مونديل، عضو لجنة العمال الموسميين به، في ذلك الوقت، باستدعاء رئيس الكوكاكولا ليجيب رسميا على الادعاءات الموجهة الى شركته، أمام مجلس الشيوخ الأمريكي.

« ولم تمض ثلاث سنوات حتى كان رئيس الكوكاكولا يشارك في اختيار مونديل هذا لعضوية اللجنة الدولية التي حدثتكم عنها في لقائنا الأول، ثم ليكون نائبا للرئيس الأمريكي كارتر.

« وفي نفس الوقت الذي نجدها مهتمة بابتزاز حفنة دولارات من عمالها، نقرأ أنها خصصت مبالغ طائلة للأعمال الخيرية والثقافية التي تمتد من ادارة جامعة كاملة الى جائزة هامة للابداع الفني والأدبي، ومنحة ضخمة قدمتها عام 1977 لمتحف بروكلين الأمريكي ليعمل على انقاذ آثار الفراعنة المصريين من الانهيار.

« وبينما تمثل مياه الحنفية المنافس الوحيد لها الان (فهي توزع 200 مليون زجاجة يوميا في العالم حسب احصائيات عام 1978)، نراها ترعى مشروعا لأزالة ملوحة البحر تقوم به شركة « أكواشيم » التي اشترتها الكوكاكولا قبل عدة سنوات وبالتحديد عام 1970.

« أثارت هذه المتناقضات حيرتي فقمت بأبحاث عدة علمت منها أن شركة الكوكاكولا ظلت منذ نشأتها أمينة لمبدئين أساسيين وضعهما مؤسسوها العظام. المبدأ الأول هو أن يصبح كل مشترك في مغامرة الكوكاكولا غنيا وسعيدا. والمبدأ الثاني هو أن يقتصر نشاطها على انتاج سلعة واحدة هي الزجاجة المعروفة.

« لكن رياح التغيير التي هبت في أوائل الستينات، أرغمتها على الاختيار بين المبدئين. ولكي لا تضحي بالمبدأ الأول، فضلت أن تقوم بتنويع منتجاتها. فبدأت بانتاج أنواع أخرى من المياه الغازية، ثم مدت نشاطها الى زراعة الموالح والبن والشاي، وأصبحت لها مزارع واسعة في نفس الولاية التي ولدت بها، وهي ولاية جورجيا، تجاور مزارع الرئيس الاميركي كارتر. وربما كان هذا الجوار هو المسؤول عن تماديها في سياسة التنويع بالاشتراك في الأمور العامة، المحلية والدولية.

« ولاشك في أن النجاح كان من نصيب هذه السياسة. ويكفي الاشارة في هذا الصدد الى عودة الزجاجة العتيدة الى كل من الصين ومصر بمبادرة وطنيين شجعان، ذوى مباديء، في البلدين.

«غير أن هذا النجاح تمخضت عنه ظاهرة غريبة. فمع استخدام الوسائل الحديثة وتقليل تكلفة الانتاج بالاعتماد على عمال موسميين ذوى أجور منخفضة، أصبحت الكوكاكولا من أكبر منتجي الفواكه الطازجة في العالم الغربي. لكنها وجدت نفسها للأسف مرغمة على القاء جانب كبير من هذا الانتاج في البحر كي لا ينهار السوق العالمي.

ولم يكن من حل لهذه المشكلة الا بمزيد من التنويع. فاستغلت امكانياتها الضخمة وخبرتها بميدان الزراعة، في رعاية عدد كبير من مشروعات الامن الغذائي بالبلاد المتخلفة. منها مشروع لزراعة البقول في «أبي ظبي» تقوم به شركة «أكواشيم» التابعة لها. كما قامت بأبحاث واسعة لانتاج شراب غني بالبروتينات والعناصر المغذية الاخرى، تعوض به المستهلكين عن الفائض الذي تضطر لالقائه في البحر».

توقفت لحظة ريثما بلعت ريقي ثم استطردت :

« هكذا ترون أيها السادة، كيف ان التنويع يصلح ــ في حالة الكوكاكولا ــ مفتاحا لفهم أغلب الظواهر المرتبطة بها. وقد وجدت بالبحث أن هذا المفتاح قادر على فك مغاليق أخرى كثيرة.

« إن نظرة واحدة للواقع العربي تكفي للبرهنة على صحة قولي. فهي تكشف لنا من الوهلة الاولى عن ظاهرة «التنويع» في أشكال الأنظمة (وهو بالتأكيد مخطط له بالنظر الى أن هذه الأنظمة لا تختلف عن بعضها في الجوهر) وفي وسائل العمل السياسي، وشعاراته وأهدافه.

« ففي وقت من الأوقات، كانت هذه الأنظمة تتوجه الى شعوبها بوسيلة اقناع واحدة لا تتغير هي السجن والتعذيب. لكن التنويع أضاف اليها أساليب أخرى متنوعة من التصفية الجسدية الى التليفزيون والمجالس النيابية.

« وفي وقت من الأوقات، كانت الأنظمة ترفع شعارات أساسية لا تتغير، لكنها أدركت أخيرا أهمية تغيير هذه الشعارات بين الحين والاخر وتنويع الاهداف والتحالفات والعداوات.

« وبفضل سياسة «التنويع» اتسعت الارتباطات الوحدوية لهذا البلد ــ والتي كانت قاصرة في الماضي على بقية الشعوب العربية ــ لتشمل الان الشعوب الاسترالية الصديقة.

« وبفضلها توفرت للمصريين الاسلحة الاميركية والانجليزية والفرنسية والايطالية

والالمانية التي حرموا منها طويلا. وبعد أن كان السوق المصري قاصرا على سيارة واحدة يتم تجميعها في المصانع المحلية هي سيارة نصر «فيات»، امتلأ الان بالماركات العالمية المختلفة، تأتيه سياراتها مباشرة من مصانعها الأصلية.

« وبعد ان كانت مشاريع الاسكان قاصرة على خدمة الطبقات المحدودة الدخل، تقدم لها مجمعات متماثلة الشكل والحجم، اتسعت الان لتشمل كافة الطبقات، واكتسبت تنوعا شديدا يمتد من المقابر الى الابراج الفاخرة.

« وتصلح السيجارة المصرية نموذجا لعرض وتفسير الظواهر المختلفة، الغامضة أحيانا، والتي تصاحب عملية شديدة التعقيد مثل عملية التنويع. فانتم تعرفون ــ ولا شك ــ قوة العادة وسطوة الادمان. وقد بلغ تعلق المصريين بسيجارتهم المحلية أوجه في الستينات، عندما منعت السجاير الأجنبية، وأمكن توحيد عدد من السجاير المحلية في سيجارة واحدة، هي التي عرفت باسم البلمونت، نالت توليفتها رضاء الأغلبية.

« وهي العقبة التي واجهتها عملية التنويع في ميدان السجاير. وتطلب التغلب عليها جهودا مضنية في اتجاهات متعددة، تعددت نتيجة لها فترات الاختفاء المفاجيء للسيجارة المصرية، مما أجبر المستهلك على تلمس بديل أجنبي لها.

« ومن السهل أن نرى في صدمة هذا الانتقال الاجباري المفاجيء، علة للاصابة بمرض الاكتئاب النفسي، خاصة وان السجاير الاجنبية تباع بضعف ثمن السيجارة المحلية.

« ولما كان استهلاك السجاير في البلاد المتخلفة أوسع منه في غيرها (فالاخيرة تحظر الاعلان عنها كما تنبه مواطنيها الى العلاقة بينها وبين الاصابة بمرض السرطان وتقدم لهم متعا أخرى بديلة ومتنوعة) يكون الاكتئاب الناشيء أكثر عمقا وأصعب في العلاج، مما يدفع شركات الادوية الاجنبية إلى أن توصي أبناء البلاد المتخلفة باستخدام جرعات أكبر من العقاقير العظيمة المضادة لهذا المرض.

« وهو ما يخلق مشكلة جديدة تتمثل في الادمان على هذه الادوية. الا أن التنويع نفسه يقدم الحل لهذه المشكلة. فيلجأ الطبيب الى تغيير الدواء باستمرار اثناء فترة العلاج، ويساعده في هذا التنوع الذي تتميز به هذه العقاقير.

« ومن ناحية أخرى فان الاكتئاب نفسه هو في أغلب الاحيان بمثابة مفترق طرق يؤدي بعضها الى العنة الجنسية أو الصحوة الدينية أو فتور الهمة والقذارة، أو الخبل.

« هكذا ترون أيها السادة، كيف أن منهج التنويع يصلح لتفسير ظواهر كثيرة في حياتنا المعاصرة، وللربط بينها في سلسلة متينة الحلقات ».

تكلم أحد الأعضاء بلهجة مترددة وهو يتطلع الى الأشقر بين الفينة والأخرى :

« لقد عرضت وجهة نظرك باسهاب ووضوح.. لكن ثمة ما أريد أن أفهمه. أقصد أنك لم تتعرض لموضوع مياه الحنفية ».

أجبت على الفور بلهجة تشي بالاعجاب :

« لقد أحسنت يا سيدي باثارة هذا الموضوع لأنه يتميز بأهمية خاصة لكافة المشتغلين بالابحاث العلمية. فهو يعطينا مثالا كلاسيكيا للاخطاء التي يمكن أن يتورطوا فيها.

« فقد أغرتني معرفتي بحجم التوزيع العالمي لزجاجة الكوكاكولا من ناحية، وبأن الشعب المصري من الشعوب المدمنة لاستخدام مياه الحنفية في الشرب (على عكس الشعوب المتحضرة عموما) من ناحية أخرى، على الربط بين عودة هذه الزجاجة الى مصر وظاهرة قلة مياه الحنفية واختفائها تقريبا بالنهار فضلا عن دكنة لونها وميله الى السواد.

« الا أني لم ألبث ان اكتشفت أن الظاهرة المذكورة سابقة على عودة الكوكاكولا بسنوات. وبالبحث وجدت أن الحنفية ظلت منذ الستينات المصدر الوحيد لمياه الشرب الى أن طبقت سياسة التويع وظهرت المياه المعدنية المستوردة. واكتشف أن التغير الذي لحق بمياه الحنفية قد بدأ منذ تلك اللحظة، مما يتفق مع النتائج التي توصلت اليها في حالة مماثلة هي الخاصة بمصير السيجارة المصرية.

« على ان الوقوف عند احدى النتائج والقناعة بها، من المخاطر التي يواجهها الباحثون عادة. فبمواصلة البحث، مهتديا بالمنهاج ذاته، أمكنني التوصل الى رؤية أعمق تكشف أيضا عن الترابط بين عدد من الظواهر.

« ذلك ان مشروعات شركة الكوكاكولا لري الصحارى ظلت لفترة طويلة قاصرة على مجال واحد هو ازالة ملوحة مياه البحر . وقد اتاحت لها حرب اكتوبر (تشرين) فرصة ذهبية لتويع وسائل عملها، باستخدام مياه النيل، في ري صحراء النقب، وهو ما تيسر بفضل الأنفاق الهائلة المحفورة أسفل قناة السويس. ومن الطبيعي أن يؤدي مثل هذا التويع الى قلة المياه المنسابة من الحنفيات، كما ان انخفاض التخزين نتيجة للسحب المتزايد هو المسؤول عن تسلل الشوائب الى المياه وتغير لونها ».

خاطبني الأشقر بلهجة ظافرة :

« وتريدنا ان نصدق انك عرفت كل هذه الأشياء بجهدك الخاص عن طريق الصحف ».

أجبت : أجل.

تكلم العسكمدنى والمدنعسكري لأول مرة، وكان يضع باروكة واضحة على رأسه، فخاطبني في لهجة حازمة :

« من الخير لك ان تدلي على الفور بأسماء شركائك والتفاصيل الكاملة للمؤامرة قبل أن نجبرك على ذلك. فنحن قادرون على فك عقدة لسانك. حقا أننا لا نميل ـــ بحكم

المباديء الانسانية التي نسترشد بها ــ إلى الالتجاء لهذا السبيل. الا أن للضرورة أحكامها ».

مالت العانس نحوي وقالت في رقة :

« لا أظن أننا سنضطر الى ذلك. فهو سيتكلم حالما يتبين مصلحته ».

هبط قلبي بين قدمي وقلت :

« أنا أعرف الوسائل التي تشيرون اليها، ومن المؤكد أنها ستضطرني للاعتراف بأي شيء. لكن ما سأعترف به في هذه الحالة ــ لن يكون هو الحقيقة أما انتم فستظلون دائما في حيرة من أمري ».

ران الصمت على القاعة وجعلوا يتبادلون النظرات. وأدركت كما يقولون بلغة اللجنة ــ أن القذيفة التي أطلقتها في الظلام قد أصابت مقتلا.

مال الأشقر على الرئيس وتبادل معه الهمس. وأخيرا تكلم الاخير :

« ربما كان من الأفضل ان تنفرد بنفسك قليلا لتتروى في الأمر. يمكنك أن تخرج الان، وسنستدعيك بعد قليل من الوقت لنعرف ما توصلت اليه ».

أدركت انهم يريدون التخلص مني ليتشاوروا في حرية. فغادرت القاعة ووقفت الى جوار حارسها العجوز. وقدمت اليه سيجارة فتناولها في صمت ووضعها خلف أذنه، بينما أشعلت أنا واحدة استنشقت انفاسها في لهفة.

كان الدهليز خاليا، يأتيه الضوء من نافذة كبيرة بالجدار المقابل، تطل فيما يبدو على فناء مهجور ودخنت وأنا أسترق النظر الى الوجه الوادع المستسلم للحارس الجالس الى جواري. وتمنيت لحظة أن أكون مكانه، متمتعا بنفس الاستسلام والوداعة. ثم خطر لي أن حالته قد لا تكون طبيعية وانما من تاثير مخدر ما.

وسواء كان هذا هو السبب، أو أنه أدرك حرج موقفي، فانه لم يرد على عندما حاولت أن أجاذبه الحديث شاكيا من حرارة الجو.

فرغت سيجارتي، فألقيت ببقيتها في منفضة نحاسية الى جوار الباب، واعتمدت بظهري على الحائط. كنت عاجزا عن التفكير، فرحت أنظر أمامي عبر النافذة، شاعرا أني اتطلع في الفراغ.

وبعد حوالي نصف الساعة، نهض الحارس فجأة، كانما بلغته رسالة سرية، فاختفى داخل القاعة، ثم ظهر على الفور وأشار لي بالدخول.

دخلت في وجل وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى. ووقفت أمام العيون التي حدقت وأحدقت بي.

خاطبتني العانس في رقتها المعهودة : « ماذا قررت ؟ »

قلت : « ليس لدي ما أضيفه سوى أن أرجوكم تقدير الظروف السائدة غير الطبيعية التي أحاطت بي ».

قالت في حدة وشراسة مفاجئتين : « أنت وشأنك اذن ».

أزاح الرئيس جانبا بضع أوراق أمامه وتكلم ببطء :

« ان موقفك المتصلب يجعلنا لا نجد مبررا للرأفة بشأنك أو للاستجابة لالتماسك. ولهذا فانت ــ في رأينا ــ تستحق أقصى عقوبة مقررة. وهذا هو قرارنا بالاجماع ».

ونهض واقفا فاقتدى به بقية الأعضاء وهم يجمعون أوراقهم. ثم أزاحوا مقاعدهم الى الخلف، واتجهوا الى باب جانبي خلفهم، فغادروا القاعة واحدا خلف الاخر.

لبثت أحدق في ظهورهم حتى اختفى آخرهم، واصبحت بمفردي أنا وصورة القصير ذي الوجه القبيح، وأكاليل العزاء من كافة أنحاء الدنيا.

سمعت صوتا عند الباب الرئيسي للقاعة، وعندما التفت أبصرت بالحارس يتطلع الى متسائلا، فحركت قدمي نحوه في تثاقل.

المحاكمة هو عنوان القصة التي خصنا بها صديقنا صنع الله إبراهيم، وهي الخامسة في سلسلة القصص التي بدأها ب « اللجنة » ونشر بعضاً منها في مجلة « الفكر المعاصر »المصرية.